

المحاضرة الثالثة: المنهج الاجتماعي

1- المنهج الاجتماعي (النشأة والمفهوم):

نشأ المنهج الاجتماعي في أحضان المنهج التاريخي إذ ليس من السهل الفصل بين المنهج الاجتماعي والمنهج التاريخي في دراسة الأدب؛ فهما معا يعنيان ارتباط الأدب والأديب بالحياة في وجوهها كافة، وبظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وخصائص البيئة الجغرافية، وسيرة الأديب وحياته، وما تقلب فيه من أحداث وظروف وملابس، مما يجعل التاريخ السياسي والاجتماعي ضرورة حتمية لفهم الأدب، وقد رأى بعضهم أن المنهج الاجتماعي جزء من المنهج التاريخي.

"ويبدأ النقد الاجتماعي من الاعتقاد بأن علاقات الفن بالمجتمع مهمة وحيوية، وبأن هذه العلاقات يمكن أن تعمل على تنظيم وتعميق استجابة المرء الجمالية للعمل الفني، إن الفن لا يولد من فراغ فهو ليس عملاً شخصياً، ولكنه عمل مؤلف قائم في زمان ومكان معينين، ويستجيب لمجتمع هو فرد مهم فيه"؛ فهو منهج يربط بين الأدب والمجتمع بطبقاته المختلفة، إذ يكون الأدب ممثلاً للحياة على المستوى الجماعي لا الفردي؛ باعتبار أن المجتمع هو المنتج الفعلي للأعمال الإبداعية، فالقارئ حاضر في ذهن الأديب وهو وسيلته وغايته في آن واحد.

وقد تتبع إدموند ولسون (Wilson) تيار النقد الاجتماعي، وأرجعه إلى 'فيكو' (Vico) في القرن الثامن عشر، ودرسته عن ملاحم هوميروس؛ التي تكشف عن الأوضاع الاجتماعية التي عاش فيها الشاعر اليوناني.

وفي مطلع القرن التاسع عشر أصدر أدباء فرنسيون مؤلفات يشيرون فيها إلى علاقة الأدب بالمجتمع أهمهم مدام دوستيل التي أصدرت عام 1800م كتابها عن (الأدب من حيث علاقاته بالنظم الاجتماعية)، وشاتوبريان الذي أصدر كتاب (عبقرية المسيحية) عام 1802م، كما يمكن عد التحليلات التي حوّاها كتاب الناقد 'هيوليت تين' في كتابه (تاريخ الأدب وتحليله) عام 1863م، أحد أبرز التطبيقات الممثلة للمنهج الاجتماعي في دراسة الأدب وتحليله.

ثم ارتبط النقد الاجتماعي بدعوة إصلاحية ثورية تمثلت في الاشتراكية؛ وتتجسد ضمنها الرؤية الماركسية للأدب، وتحمل مبادئ الفلسفة المادية الجدلية التي تقوم عليها الشيوعية، والماركسية في الأساس نظرية في الاقتصاد السياسي؛ وضعها 'كارل ماركس' بمشاركة مهمة من 'فريدريك إنجلز'، في منتصف القرن التاسع عشر، وتقوم هذه النظرية التي اشتهرت بالشيوعية على أن الأفراد في المجتمع الإنساني يدخلون في علاقات إنتاجية، وأن مجموع هذه العلاقات يشكل البنية الاقتصادية للمجتمع، ويتحكم نمط الإنتاج في الحياة المادية بحركة الحياة الاجتماعية والسياسية و العقلية.

فالنقد الماركسي يقوم على "أن الأساس الاقتصادي للمجتمع هو الذي يحدد طبيعة الإيديولوجيا والمؤسسات والممارسات كالأدب، التي تشكل جميعها البنية الفوقية لذلك المجتمع".

كان للفكر المادي الماركسي أثر في تطور المنهج الاجتماعي، وإكسابه إطاراً منهجياً وشكلاً فكرياً ناضجاً، ومن المتقرر في الفلسفة الماركسية أن المجتمع يتكون من بنيتين: دنيا: يمثلها النتاج المادي المتجلي في البنية الاقتصادية، وعليا: تتمثل في النظم الثقافية والفكرية والسياسية المتولدة عن البنية الأساسية الأولى، وأن أي تغير في قوى الإنتاج المادية لابد أن يحدث تغييراً في العلاقات والنظم الفكرية.

وقد عملت الماركسية مع الواقعية جنباً إلى جنب في تعميق الاتجاه الذي يدعو إلى التلازم بين التطور الاجتماعي والأدبي؛ مما أسهم في ازدهار (علم الاجتماع) بتنوعاته المختلفة، كان من بينها علم نشأ قبل منتصف القرن العشرين أطلق عليه (علم اجتماع الأدب) أو (سوسيولوجيا الأدب).

2- أعلام المنهج الاجتماعي في النقد:

يعد كارل ماركس أول من أعطى تفسيراً موضوعياً للعلاقة بين الأدب والمجتمع، وعين لها موضعاً داخل مجموع العلوم الاجتماعية، واعتبر أن الأدب واقعة اجتماعية تاريخية نسبية، وأن الكاتب يعبر في أعماله عن وجهة نظر الطبقة التي ينتمي إليها بوعي أو بغير وعي.

ثم جاء الناقد المجري جورج لوكاتش منظراً لهذا التيار الذي أفاد من رؤية الماركسية في دراسته الموسومة (روايات بلزاك والمفهوم المادي للتاريخ)، وقد عد الأدب تصويراً للواقع الاجتماعي، وتصويراته ليست إلا محصلة لبيئته الاجتماعية لكنه رفض حتمية ذلك بينهما؛ وهو يحاول أن يبرهن على أن أعظم الآثار الأدبية لا تعيد إنتاج الإيديولوجيات السائدة في عصرها فحسب، بل تجسد في

شكلها نقدا لها؛ أي إن الأديب - وهو يعكس الوضع الاجتماعي القائم - يقدم لنا موقفه الفكري والفلسفي من هذا الوضع؛ فهو ناقل وناقد.

ثم جاء لوسيان غولدمان وطور أفكار لوكاتش، وأسس المنهج التوليدي أو التكويني حتى يتجاوز عثرات من سبقه، وهو يعني بالأدب ظاهرة اجتماعية وتاريخية، يدرس فيها البنى الداخلية ويربطها بما يحيطه، وجعل الرواية مجالاً لإجراء بحوث حول بنيتها وعلاقتها بالوسط الاجتماعي الاقتصادي في كتابه (من أجل سوسيولوجيا الرواية).

3- اتجاهات المنهج الاجتماعي:

أ- الاتجاه الكمي:

وهو تيار تجريبي يستفيد من التقنيات التحليلية في مناهج الدراسات الاجتماعية، مثل الإحصائيات والبيانات وتفسير الظواهر انطلاقاً من قاعدة يبنها الدارس طبقاً لمناهج دقيقة ثم يستخلص منها المعلومات التي تهتمه، ويرى هذا الاتجاه أن الأدب جزء من الحركة الثقافية، وأن تحليل الأدب يقتضي تجميع أكبر عدد من البيانات الدقيقة عن الأعمال الأدبية، وذلك لاستخلاص نتائج مهمة تكشف لنا عن حركة الأدب في المجتمع، ومن رواده الناقد الفرنسي 'سكاربيه'.

ويغفل هذا الاتجاه الطابع النوعي للأعمال الأدبية، فتدرس الأعمال الأدبية بوصفها ظواهر اجتماعية، فالذي يحكم هذه الدراسات الأساس الكمي لا الكيفي (الرؤية الجمالية في الحكم على العمل الأدبي).

ب- الاتجاه الجدلي:

نسبة إلى 'هيجل' ثم ماركس من بعده، ورأيهما في العلاقة بين البنى التحتية والبنى الفوقية في الإنتاج الأدبي والإنتاج الثقافي، وهذه العلاقة متبادلة ومتفاعلة مما يجعلها علاقة جدلية، وقد برز 'جورج لوكاتش' منظرًا لهذا الاتجاه من خلال دراساته التي ربط فيها بين نشأة الجنس الأدبي وتطوره، وبين طبيعة الحياة الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما (سوسيولوجيا الأجناس الأدبية)، وتناول فيها طبيعة ونشأة الرواية المقترنة بنشأة حركة الرأسمالية العالمية وصعود البرجوازية الغربية.

ثم جاء بعده 'لوسيان جولدمان' وتبنى اتجاهاً يطلق عليه (علم اجتماع الإبداع الأدبي)، حاول فيه الاقتراب من الجانب الكيفي على عكس اتجاه 'سكاربيه' الكمي.

4- منطلقات المنهج الاجتماعي في النقد:

- ربط الأدب بالمجتمع والنظر إليه على أنه لسان المجتمع والمعبر عن الحياة، فالحياة هي مادة الأدب، منها يستقي موضوعاته، ويعترف أفكاره وتصورات، وهو كذلك يتجه بخطابه إليها، ولم تخلد الأعمال الأدبية وتتسم بالعظمة والديمومة إلا لأنها خدمت الحياة، وصورت هموم الإنسان ومشكلاته فيها؛ فالأدب إذن يقدم صورة للعصر والمجتمع، والأعمال الأدبية وثائق تاريخية واجتماعية.

- العلاقة بين الأديب ومجتمعه علاقة جدلية، فالأديب يتأثر بمجتمعه ويؤثر فيه، تصنعه ظروفه وأحواله الاقتصادية والفكرية والسياسية، وإن رؤية الأديب الفكرية وفلسفته عن الحياة والكون، إنما تتبلوران بتأثير المجتمع والمحيط والتربية، والأديب يؤثر في مجتمعه فيسهم في تطويره وإصلاحه، وقد تحمل كتاباته بذور الثورة والتغيير، وصياغة مشاعر الناس وأحاسيسهم على نمط معين.

- الأدب جزء من النظام الاجتماعي، وهو كسائر الفنون ظاهرة اجتماعية، ووظيفته اجتماعية.

- وبناء على ما تقدم يبدو الأدب ضرورة لا غنى عنها، وهو نشاط اجتماعي متميز، والإنسان لا يستطيع أن يقيم حضارة دونه؛ فالأدب وجه من وجوه الحاجات الروحية.

- المجتمع يعترف بمكانة الأديب نظير الجهد الذي يقدمه لمجتمعه، والدور الذي يقوم به في تطور الحياة الاجتماعية.

- الأديب لا يكتب أدبه في الفراغ، وإنما يتوجه به إلى جمهور المتلقين هم المجتمع، فثمة علاقة تفاعل بينهما.

- ولذلك ربط المنهج الاجتماعي النقدي الأدب بال جماهير، فجعلها هدف خطابه، وبذلك أعلى من شأن الجماعة، وبحث عن تأثير الأدب فيها؛ حتى ذهب إلى أن قيمة الأدب الجمالية تنبع من قدرته على التعبير عن الجمهور، كما ذهب أيضا إلى بيان تأثير الجماعة في القيم الجمالية للأدب.

5- خصائص المنهج الاجتماعي:

- النقد الاجتماعي هو نقد مضموني، بل إن بعض النقاد يسميه (النقد المضموني)؛ إذ هو يعنى بمضمون العمل الأدبي، ويتوقف عنده بالدراسة والتحليل، ويرى في الأدب رسالة اجتماعية هادفة، أو حدثاً ذا طبيعة اجتماعية.

- الأدب في هذا النقد الاجتماعي المضموني ناقل للأفكار السياسية والفلسفية والجمالية وغيرها لأفراد المجتمع، أو لطبقة منه، وهو يوجهها وفق إيديولوجيا معينة يتبناها الكاتب ويروج لها في كتاباته، ولذلك صنف هذا النوع من النقد فيما أطلق عليه اسم (النقد الإيديولوجي)؛ أي نقد المواقف والأفكار.

- النقد الاجتماعي هو (نقد تفسيري) وهو يتجه إلى مضمون العمل الأدبي؛ لأنه أهم عناصره، ويحاول الناقد من خلاله إبراز الدلالات الاجتماعية أو التاريخية أو النفسية أو غيرها، الكامنة في هذا العمل، كون هذا العمل يعبر عن المجتمع.

- النقد الاجتماعي كذلك (نقد حكمي) تقويمي، وهو يعلي من شأن الكاتب الملتزم بقضايا مجتمعه، المعبر عنها.

ونشير هنا إلى أن المنهج الاجتماعي بالرغم من نقله صورة واقع المجتمع بتركيزه على المضامين الاجتماعية والسياسية...، إلا أنه منهج ينظر إلى الأدب من الخارج في شقه التعبيري والجمالي.

6- المنهج الاجتماعي عند النقاد العرب:

تلقف العالم العربي المنهج الاجتماعي وهو يشهد تطورات اجتماعية وسياسية، تمثلت بحركات التحرر القومي من الاستعمار، وقد استجاب الأدب لتلك المتغيرات، وبدأ الأدب والنقد يتخذان مواقف من طروحات الماركسيين، ولعل من أبرز الأسماء التي يمكن أن يشار إليها في هذا الصدد: محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس في كتابهما المشترك (في الثقافة المصرية) الذي صدر عام 1955م، الذي له دور الريادة في النقد الواقعي الماركسي في العالم العربي، كما برز الناقد اليساري اللبناني حسين مروّة، ومن نقاد هذا المنهج: عصام حفني ناصف، وسلامة موسى، وعمر فاخوري، ويحيى العبد، وغالي شكري، وغيرهم.